السلسلة: الظروف الماديّة والفكريّة للعلوم في المدينة الإسلامية

الفصل 1 | العلمُ والفلسفة في العصر الهلنستيّ المتأخّر

المقال 6 | جنديسابور: من مشفى ساسانيّ إلى بوّابة الطبّ في بغداد

مؤسّسةٌ واحدة عبرت ثلاثة عصور

حين أسّس الخليفة العبّاسيّ أبو جعفر المنصور (حكم ١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م) مدينة بغداد عاصمةً لدولته، لم يُنشئ طبّها من العدم. فالأطبّاء الذين تولّوا مستشفى العاصمة الجديدة لم يكونوا خرّيجي مدرسةٍ وُلدت مع المدينة نفسها، بل جاءوا - هم وتقليدهم الطبّيّ كاملًا - من مؤسّسةٍ أقدم بقرون: مدينة جنديسابور، في خوزستان.

تعود جذور جنديسابور، بحسب بعض الروايات، إلى عهد مؤسّس المدينة نفسه، الملك الساسانيّ شابور الأوّل (حكم ٢٤٠-٢٧٣م) - وإن ظلّ هذا التأريخ المبكر احتمالًا لا يقينًا تاريخيًّا حاسمًا. أمّا ما لا شكّ فيه، فهو أنّ أزهى عصورها كان في القرن السادس الميلاديّ، تحت رعاية الملك كسرى الأوّل أنوشروان (حكم ٥٣١-٥٧٨م) - الملك الفارسيّ نفسه الذي روت هذه السلسلة في مقالٍ سابق كيف آوى الفلاسفة اليونانيّين الفارّين من حظر الإمبراطور جستنيان على الفلسفة الوثنيّة.

لم تكن جنديسابور مدرسةً دينيّة فقط، بل مستشفى وأكاديميّةً طبّيّة مُلحقةً به، استمرّت فاعلةً حتّى العصر العبّاسيّ المبكّر - أي أنّها عبرت، بلا انقطاعٍ ظاهر، من الحكم الساسانيّ إلى الحكم الإسلاميّ.

وحين أُسّست بغداد، لم يكن هذا الانتقال رمزيًّا: فالأطبّاء العاملون في مستشفى جنديسابور استُدعوا بأعيانهم للعمل في مستشفى العاصمة الجديدة. وتجسّدت استمراريّة هذا الانتقال في عائلتين طبّيّتين كبريين: عائلة بختيشوع (ومن أبرز أفرادها جرجيس بن جبرائيل، توفّي سنة ٧٦٨م)، وعائلة ماسويه (وأبرزهم يوحنّا بن ماسويه، المعروف لاتينيًّا باسم Mesue، توفّي سنة ٨٥٧م). وبهؤلاء، وبأحفادهم وتلاميذهم من بعدهم، تأسّس الطبّ العلميّ العربيّ نفسه، عبر نقل وترجمة مصنّفات الأطبّاء اليونانيّين من اليونانيّة والسريانيّة الآراميّة، واستمرّ هذا العمل فاعلًا حتّى القرن العاشر الميلاديّ.

فالخطّ الذي يصل جنديسابور ببغداد لم يكن خطّ نقلٍ بسيطٍ بين لغتين أو حضارتين، بل خطّ مؤسّسةٍ واحدة، بشرًا وعلمًا معًا، عبرت عصورًا وملوكًا وخلفاء، حاملةً معها تقليدًا طبّيًّا لم ينقطع يومًا.

المصدر: مقتبس ومُعَدّ عن فصل "العلم والفلسفة في العصر الهلنستي المتأخر"، بقلم غيرهارد إندرس (Gerhard Endress)، ضمن المجلد الثالث من موسوعة "تاريخ العلم"، الصادرة عن معهد الموسوعة الإيطالية (تريكاني) 2002، بإشراف رشدي راشد. وهو جزء من الموسوعة التي تُعِدّ دار الرّيّان للنشر حاليًا لترجمتها ونشرها بالعربية كاملة.